

تربية الأمة بالأسوة الحسنة

(فأسس رسول الله المسجد وأسسوا معه .. وبناه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه ويقول : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ...) .

محمد بن سعد عن الواقدي

بقيام مسجد المدينة أصبح لأمة الإسلام وجود مادي ملموس . والمسجد لم يكن مصل فحسب ، بل كان ملتقى المسلمين ومجمعهم . إنه بيت أسرهم ، هنا كانوا يصلون ، والصلاة طريق المخلوق إلى الخالق وهنا يتلاقى المسلم والمسلم ليشعرا بالأنس والقوة والمحبة ، لأن المسجد هو بيت الله ، وهو كذلك بيت كل مسلم . إلى هنا كان يفزع المسلمون إذا حزهم أمر . والمسجد عاصمهم ، قل عاصمتهم ، لأن فيه مقام رسول الله ﷺ ، وبالفعل بمجرد قيام المسجد تحولت المدينة إلى «عاصمة» .. الإسلام لا بالمعنى السياسي فحسب ، بل بالمعنى الديني الإسلامي ، فهنا تؤدى الصلاة . والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فهي عاصمة من الضلال ..

لهذا لم يقدم الرسول على إنشاء المسجد شيئاً . منذ اليوم الأول لمقامه في دار أبي أيوب بدأ التفكير في إقامة المسجد وعمارته ، ومن الأسبوع الأول تم التفاهم بين الرسول وأمه على أرض المسجد وعمارته ، ثم كان الشروع في العمل الذي استغرق - كما جاء في ابن سعد عن الواقدي - من ربيع الأول سنة ١ للهجرة إلى صفر سنة ٢ للهجرة (سبتمبر ٦٢٢ - يوليو ٦٢٣ م) .

وهناك حقيقة أخرى تتصل بمسجد الرسول لها أهميتها بالنسبة لمبحثنا هذا : هي أن الرسول اشترك في بنائه بنفسه ، عمل بيده في البناء . قال ابن إسحاق فعمل فيه رسول ﷺ ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبي يعمل فذاك منا العمل المضلل

وهذا البيت من الشعر يضع يدنا على العبرة من اشتراك الرسول في العمل في بناء مسجد الجماعة بيده ، إنها الأسوة الحسنة ، وهذا رجل من المسلمين يقول إننا لو قعدنا عن العمل ورسول الله يعمل فذلك منا خطأ وضلال ..

وإذن فهي الأسوة الحسنة التي أراد الرسول أن تكون سبيله لتربية جماعته . كان إذا أراد من المسلمين أن يعملوا عملاً بدأ هو العمل بنفسه دون أن يصدر أمراً . فإذا رآه الناس تبعوه فيه طواعية واختياراً ومحبة . يجدون في ذلك شرفاً وقربة ..

ولقد أكد الله سبحانه وتعالى معنى الأسوة الحسنة وجعلها قاعدة دينية أخلاقية قال في سورة الأحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾ . (الأحزاب : الآية ٢١) .

وسورة التوبة أو براءة هي كما قلنا سورة التقنين والتشريع النهائي للكثير من الأصول التي ينبغي أن يكون عليه كل مسلم وكل جماعة مسلمة ...

وإذن فالأسوة الحسنة واجب وفرض على كل من ولى أمراً من أمور المسلمين بدلاً من إصدار الأوامر ، ليبدأ من ولاء الله أمر المسلمين في شيء بنفسه أخلاقياً وعملياً ، لأن الأسوة الحسنة هي أمثل أساليب التربية ..

وحتى في المغازي لم يكن رسول الله حتى نزلت سورة براءة يصدر أمراً للناس بالخروج ، بل كان يستعد ويتأهب . حتى أبو بكر كان أحياناً لا يعرف أن الرسول خارج إلى غزاة . كان يعلم عن طريق ابنته أم المؤمنين عائشة ، فيسرع ويعد نفسه ، ويخرج الرسول ومن حضر إلى خارج المدينة ، ويعسكر في موضع يسمى الجحرف شمال المدينة ويتشر الخبر ويتلاحق الناس بالرسول ، وهو ينتظرهم يوماً أو بعض يوم ثم ينهض لغزاته بمن حضر . .

لقد قال رسول الله ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » . وهذا حق والعبرة من هذا الحديث هي بقيته التي لم يقلها الرسول ولكن نقولها نحن : وأدب محمد أمته فأحسن تأديبها .

لأن الأسوة الحسنة هي تأديب عن طريق إيقاظ الضمير وإذا استيقظ ضمير الجماعة أصبح هو قانونها وشرعتها ومنهجها في الحياة . والقرآن كله ، والإسلام كله إيقاظ للضمير والضمير الحي يفتح الطريق إلى الله وإلى الفضائل . .

وما قيمة كل تشريعات الدنيا وعقوبات القوانين مع الضمير الميت . والضمير لفظ حديث غير قرآني يقابله في القرآن : القلب والقلوب والصدر والصدور وقرأ معي قول الله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَانَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . (الأنفال الآيتان ١ - ٢) .

وتأمل قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُوكُوا لَهُمْ قُلُوبَ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانَ يَسْمَعُونَ بِهَا فَأَبْهَمُوا الْبَصَارَ لَكِن لَّا تُعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ . (الحج : الآية ٤٦) .

أما الذين ماتت ضمايرهم فلم يعودوا يحسنون شيئاً أو يعرفون فرقاً بين خير وشر ، بين فضيلة ورذيلة فحديث القرآن عنهم طويل .

ولكن اقرأ معي تلك الآيات من سورة الإسراء : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ وَلُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ . (الإسراء : الآيتان ٤٥ و ٤٦) .

ورواية محمد بن سعد عن شيخه الواقدي في شأن اشتراك الرسول بالعمل بيده في المسجد أبلغ من عبارة ابن سعد برواية زياد بن عبد الله البكائي قال : وبناءه رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه ويقول : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » .. وتكمل هذا الخبر عبارة وردت عند ابن هشام : قال (ابن إسحاق) يروى خبر دخول عمار بن ياسر على رسول الله أثناء بناء المسجد . قالت أم سلمة زوج النبي ﷺ : « فرأيت رسول الله ﷺ ينفذ وفرته بيده (أى شعر رأسه) وكان رجلاً جعداً وهو يقول :

ويح ابن سمية .. فكان رسول الله كان يعمل في البناء حتى امتلأ شعر رأسه بالغبار فجعل ينفذه بيده ..

تري كم تكلف بناء هذا المسجد الضخم ومساحته كما قلنا ٣٢٨٠ متراً ونيف ، لقد كان أساسه على عمق متر وثلاثة أرباع المتر من الحجر ثم رفع سورته باللبن وجعل جانبا بابه الرئيسي من الحجر وأنشئ فيه عريش بيت الصلاة من جذوع النخل وجعلت الصفة في آخره هذا إلى غرف الرسول ﷺ .

كل ذلك تكلف عشرة دنانير هي ثمن الأرض ، استقرضه الرسول من صاحبه أبي بكر ودفعه ثمناً للأرض ..

والباقى : ثمن الحجر وتنجيده واللبن (بفتح اللام المشددة وكسر الباء)
وعمله وجانبها الباب والعريش والصفة وغرف الرسول ؟ هذا كله بنته المحبة بناه
الإيمان وتعاون الجماعة .

لقد تكلف بناء المسجد عشرة دنانير في حساب المال .

ولكن تكاليفه في حساب القلوب والإيمان ألوف بعد ألوف .

وهذا مانسميه ياأخى القارىء ببركة الإيمان وهي تعدل مال الأرض جميعاً
وتزيد . .

ونحن ياأخى نملك الملايين بعد الملايين فلماذا نبني بالملايين بعد الملايين ؟

لأن البركة معدومة ، والبركة تأتي من الإيمان . والإيمان هو كل شيء في
هذه الحياة . . ولو آمنت أمة الإسلام جيلاً بعد جيل لما ذهبت عنها بركة الإيمان
ولكانت اليوم أغنى الأمم وخير أمة أخرجت للناس حقاً . ولكانت الأرض كلها
اليوم إيماناً وإسلاماً . .

ومانقول هذا مواعظ ولا أمانى ، إنما هي حقيقة ، وانظروا إلى ما فعل
أجدادكم بالإيمان . لقد فتح المسلمون أيام الرسول وأيام الراشدين نصف الدنيا
بدون مال وأين كانت الخزائن التى كان يتفق منها الرسول وأبو بكر وعمر ؟ إنما
خزائن القلوب والصدور . . خزائن الإيمان .

وهذه كلها دروس وعظات نتعلمها من قيام أمة الإسلام أيام الرسول . إنما
دروس ومواد داخلة في دستور أمة الإسلام ، والدستور ليس مجرد النصوص التى
تكتب إنما أهم مواد الدساتير والقوانين هى التى لا تسطر بالأقلام فى الطروس .

إنما هى التى تنقش فى الصدور بيد الإيمان . .

وفي عالمنا هذا أمة ظللنا نحسدها زماناً على رقيها وقوتها هي بريطانيا رفض أهلها أن يكتبوا دستورهم وفضلوا أن يظل الدستور منقوشاً في الصدور . أرادوا أن يكون دستورهم هو ضميرهم . . وهذا أبلغ لأنه جعل الدستور الإنجليزي دستور القلوب وقانون الضمير وهذا الدستور وهو غير مكتوب أقوى من ألف دستور مكتوب اليوم في دول لا يتقيد أصحاب الأمر فيها بأى قانون أو دستور مكتوب أو غير مكتوب .

وأول دولة في عالمنا الراهن ، دستورها صفحة واحدة ، تناقش رجال التحرير الأمريكيون فيها وكتبه بيده رجل واحد مؤمن بوطنه وبالحرية ، رجل موهوب القلب والعقل هو توماس جيفرسون ، ولا نجد في هذا الدستور الذي كتبه توماس جيفرسون ووافق عليه أحرار الولايات المتحدة في ٤ يوليو ١٧٧٦ لا نجد فيه مادة ولا معنى ولا فكرة إلا وهي في القرآن الكريم والحديث الشريف على أبلغ صورة وأبين منطوق ، بل عندنا في قرآننا ما يفضلها ألف مرة ، ولكن قول الله سبحانه حق علينا : ﴿ فَإِنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ وإليك السطور الأولى من دستور الولايات المتحدة أوردتها عليك وأنا واثق أنك ستري أن أبلغ منها وأصدق وأشمل ورد في قرآنك الذي بين يديك . قرآنك الذي لا تكاد تقرأه وإذا قرأته فما أقل ماتعيه :

إن كل البشر قد خلقوا سواسية وإن خالقهم أولاهم حقوقاً معينة لامراء فيها ، وإن بين هذه الحقوق « الحياة » و « الحرية » والسعى إلى السعادة ، وإنه من أجل صون هذه الحقوق تنشأ الحكومات « بين البشر » مستمدة سلطاتها العادلة من قبول المحكومين . وفي نهاية إعلان الدستور تقرأ هذه الجملة البديعة « ولتكن هذه أمة من الناس وبالناس وللناس . . . فهل في هذا بالنسبة لأمة الإسلام جديد ؟ .

إنه لولا أن يطول هذا المبحث ويتجاوز صبر القارىء لأتيت لك من آيات القرآن ودرر الحديث مايدلك على أن الله فضلنا بخير مافضل به أمة من الأمم في مبادئ العدل والشورى والتقى ومكارم الأخلاق وكل ما يصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ولو كنا أهلاً للفضل لكننا أهلاً للسعادة التى نطلبها دون أن نجدها .

إلى جانب ذلك كله لدينا دستور كتبه رسول الله ﷺ أو أملى نصه بتعبير أدق ، بعد تشاور مع المسلمين ، دستور بين فيه طبيعة أمة الإسلام وحقيقة تكوينها والقواعد السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى تقوم عليها وحدتها ويستقيم عليها أمرها . .

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم .

ثم أتى بنص الكتاب كما سنأتى به فيما بعد بتفصيل شاف بإذن الله . .

وذكره - أى الدستور - أبو عبيد القاسم بن سلام بروايتين موجزتين بعض الشيء ، الأولى عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن ابن شهاب الزهري . والثانية عن حجاج بن أبى جريح - وأبو عبيد (١٤٥ - ٢٢٤ هـ / ٧٧١ - ٨٣٩ م) يعتبر من أوثق رجال الحديث ، وهو من جيل المحدثين العظام الذين جددوا شباب دراسات الفقه والأصول من منتصف القرن الهجرى الثانى إلى منتصف الثالث ، وهو صنو أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ومحمد بن إدريس الشافعى ، وهو لا يورد شيئاً إلا عن ثقة وأسانيد متينة . وقد أورد معظم نص هذه الوثيقة . . ابن كثير فى تاريخه ، وهو يسمي عندهم جميعاً « الكتاب » أو الصحيفة . .

أما سبب كتابة هذا الكتاب أو هذه الصحيفة أو الدستور ، فهو أن رسول الله ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة هاجر هو ومن سبقه وصاحبه ولحق به

على بيعة شفوية غير مكتوبة ، وهذه البيعة أو العقد أو العهد اتفاق بين محمد ومن دعوه إلى الهجرة إلى بلدهم من رجال الأوس والخزرج ، وهى لا تضم تفاصيل كثيرة بل هى تنص على أن ينتقل الرسول إلى المدينة هو وأصحابه ليعيشوا مع من أسلم من أهل المدينة أحراراً يمارسون شعائر دينهم ويعملون على نشر الإسلام ، وفى مقابل ذلك يتعهد أولئك النفر من أهل المدينة بحماية محمد ودينه وأصحابه واتباع شريعة الإسلام . ويلتزمون بالطاعة لرسول الله فى كل مايتعلق بأحكام الإسلام . .

ولم يكد هذا العقد يتم ويشرع المسلمون فى الهجرة حتى أنزلت آية الإذن للمسلمين الذين أخرجوا من ديارهم (أى المهاجرين) فى القتال :

﴿ أَدْنِ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَنَشَأَ غَلَبَةُ الْأُمُورِ ﴾ . (الحج : الآيات ٣٩-٤١) .

وهذه الآيات كما ترى تأذن للمهاجرين الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم فى أن يقاتلوا ظالمهم ، ولكن الآية لم تقل شيئاً بشأن أهل المدينة أنفسهم فى حالة القتال ، ووعد الله بالنصر أتى للمهاجرين وحدهم دون غيرهم . ثم تبرر الآيات القتال فى سبيل الدين وتقول : إنه لولا ذلك لهدمت الأديرة التى يتعبد فيها الصالحون وتخربت كنائس النصارى وبيع اليهود ومساجد المسلمين ، وهى المواضع التى يذكر فيها اسم الله كثيرا . . .

ثم تقول الآيات ، إنه عندما يمكن الله لعباده هؤلاء فى الأرض ، فإن عليهم أن يقيموا الصلوات : فى مساجدهم التى سيبنيونها ويؤتوا الزكاة ويقوموا

الخير ويدعوا إليه وينصروه وينهوا عما ينكره الدين والخلق الكريم ..

والآن استقر محمد وأصحابه في المدينة مع إخوانهم من أهل البلد الذين أسلموا وحملوا لقب الأنصار لأنهم نصروا دين الله تعالى . ومنهم معاً تكونت أمة الإسلام ، وأخذت آيات القرآن تنزل ببقية الأحكام وقواعد الشرع ومكارم الأخلاق ، وكل هذه تنظيمات ينبغي أن تطبق في أمة يقوم أمرها على ذلك الدين الجديد .

فلا بد إذن من أن تنشأ الأمة بصورة واضحة ، ولا بد أن يحدد تكوينها وشخصيتها وتبين حقوق أفرادها والتزاماتهم ونوع علاقاتهم بمن يسكنون معهم في المدينة ممن لم يدخل في الإسلام ، ومن تدين بدين آخر غير الإسلام وغالبيتهم يهود المدينة . ثم إن الله قد مكن للمؤمنين في الأرض فكيف ينفذون ما أمرهم الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ .

ثم إن المغازي والسرايا بدأت في أثناء ذلك ، ففي رمضان من السنة الأولى للهجرة أي بعد الهجرة بستة شهور ، وقبل تمام المسجد أرسل الرسول أولى سراياه ، وكانت بقيادة حمزة بن عبد المطلب ، وهي سرية سيف البحر أى شاطئه وهدفها استطلاع المساحة الواقعة بين المدينة وساحل البحر الأحمر حيث يمر طريق التجارة المكية ، وفي رمضان من نفس السنة قام عبيدة بن الحارث - وهو المهاجر الوحيد الذي كان أكبر من رسول الله سناً - بسرية رابع لنفس الغرض ..

كذلك اتصلت هجرة الناس من مكة إلى المدينة ، ودخل في الإسلام رجال من القبائل خارج المدينة ، وهذا كله تغير الموقف ، وأصبحت بيعة العقبة الثانية في حاجة إلى إعادة نظر أو إعادة صياغة كما نقول . خاصة أن محمداً تجل إلى جانب نبوته وهدهد وفضائله الكبرى عن قائد رجال ومنظم ورئيس بالغ الحكمة حسن العشرة يفتن الناس بعقله وحكمته وتواضعه وزهده مع البساطة التامة

والإنسانية الرفيعة ، فتدافع الناس في الإسلام على يديه تدافعا ، وهذا بدوره أثار غيرة وحسداً وخوفاً عند نفر من زعماء أهل المدينة ممن أحسوا أن سراج محمد المنير يضعهم في الظل بل الظلام ، ومنهم من صارح بعداوته وكرهاته وبعضهم الآخر تظاهر بالإسلام ومضى يدس لمحمد والمسلمين . .

هذا إلى أن اليهود ، وخاصة وحداتهم الثلاث الكبرى . . بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة (وكان هناك يهود غيرهم كثيرون) أحسوا خطر محمد والإسلام عليهم ، فهذا الرسول فعلاً أتى بالحق الذي يعلمونه في كتبهم ، وهذه آيات سورة البقرة سنم القرآن . . . تتوالى مبينة لهم أن ماجاء به محمد هو الحق ولا حق غيره ، ولكنه ليس من بنى إسرائيل وليس من الأسباط بل هو عربي من أحفاد اسماعيل وهذا عندهم غير مصدق ولا مقبول ، فأنكروا الإسلام إنكاراً شديداً ، وبدت البغضاء في وجوههم :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مَّنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . (البقرة : الآية ١٠٩) .

وإذن فقد تغير الموقف كله . والأمة الآن في حاجة إلى ضم صفوفها وإبراز شخصيتها لكي تستطيع مواصلة طريقها وسط العواصف الهوج التي كانت تثور حولها . .

لذلك جعل الرسول ﷺ يجتمع بأصحابه ، ويشاورهم في الأمر ، يسمع منهم ويقول لهم ويتبادلون الرأي ، وكلما انتهوا إلى شيء يرضون عنه نادى رسول الله ﷺ علياً بن أبي طالب وأملى عليه ما اتفق رأيهم عليه ، وهكذا تكون نص الكتاب أو الصحيفة أو الدستور الذي نتحدث عنه . .

وقد درس غيرنا هذه الوثيقة في الشرق والغرب على السواء ، درسها محمد حميد الله وكتب عنها ، وكتب عنها روبرت برترام سارجانت الأستاذ بجامعة

كيمبريدج ، وعقدنا معاً ندوة بحث بشأنها في جامعة الكويت . .

وتبين لي في أثناء ذلك أن الوثيقة مشار إليها مرة بعد أخرى في القرآن الكريم وأشار إليها رسول الله واستند إلى بعض نصوصها في بعض الأحكام والمناسبات ووجدت ابن سعد يشير إليها في الطبقات ، وابن حنبل في مسنده في مواضع شتى والبخارى في صحيحه والدارمي وابن ماجه وأبو داود في سننهم ، والبلاذري في أنساب الأشراف وغير ذلك كثير . .

وكلما قرأت هذه الصحيفة تبين لي أنني أمام وثيقة سياسية ذات قدر عظيم ، وأن أصحابنا أهل الفقه كان ينبغي أن يولوها عناية كبرى ويعلموا أن أمامهم هنا خطأ سياسياً تنظيمياً كان يمكنهم أن يتخونه أساماً لتفكير سياسي إسلامي سليم يصحح مسار الأمة كلها إذا هم أولوه من العناية مألوا أحاديث أخرى تتصل بموضوعات من العبادات أو المعاملات ، والجواب أن نصها الكامل لم يصل إليهم بالطرق التي كان أهل الحديث يشترطونها لقبول الأحاديث وهي طرق الإسناد بأنواعه المختلفة . .

ولكن كيف وصل النص الكامل لهذه الوثيقة إلى محمد بن إسحاق بينما وصلت إلى غيره من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد في صور مختصرة ، أو مجرد مقتبسات منها أو إشارات إليها ، وهذا هو السبب في أنهم لم يقدرها حق قدرها ولم تتكشف لهم حقائقها التي سنينها في هذا البحث . .

وسألت نفسي : ولكن كيف استوردوا عنها وهي أمامهم في سيرة ابن إسحاق ، وكانت هذه السيرة في يد كل عالم مسلم إلى القرن السابع أو الثامن الهجري ، ثم اختفت إذ حلت محلها سيرة ابن هشام ، فلم تبق منها إلا نسخ قليلة لم نثر على واحدة كاملة منها إلى الآن ، وبقيت لدينا منها فقرات ، ونقول في كتب شتى ذلك أن محمداً بن إسحاق بن يسار المطلبى صاحب السيرة كان

على خلاف مع فقهاء عصره وخاصة مالك بن أنس ، فقد كان مالك أكبر شيوخ الحديث حتى كان يسمى أمير المؤمنين في الحديث .

وكان تلاميذه يتعصبون له تعصباً شديداً - شأن التلاميذ مع شيوخهم في تلك العصور - وعندما سمع مالك أن ابن إسحاق يقول أنا « بيطار السيرة » . . أى أنه طيبها وأستاذها الأكبر أنكر مالك ذلك ، ومازال بابن إسحاق حتى أخرجه من المدينة ، فمضى إلى بغداد واتصل بالخلفاء وفرغ من سيرته في بغداد واشتهر أمرها بين الناس .

وكان محمد بن إسحاق هاشمي الميول . كان يحب أهل البيت ، وكان شديد الاتصال بكبارهم وخاصة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب والإمام جعفر الصادق ، ولهذا سمي بمحمد بن إسحاق بن يسار المطلبى . .

ولم تكن هذه الوثيقة قد كتبت مرة واحدة ، بل كتبت على أجزاء ، كانت المشاورات بين محمد وأصحابه متصلة ، كلما تطورت الأحوال وتوالت الأحداث وتشاور الرسول مع أصحابه وقرروا ما يرونه - وأثبتته على بن أبي طالب في صحف أو ورقات واحتفظ بها في قراب سيفه ، وكانت تلك ومازالت وسيلة حفظ الوثائق الهامة عند العرب : يضعونها في قراب السيف أو الخنجر أو في كيس جلد معلق فيه . .

وهذه الأوراق ورثها من أبناء علي بن أبي طالب ابنه الحسن ثم حفيده الحسن بن الحسن ، ثم ابن هذا عبد الله وانتسخ الإمام جعفر الصادق لنفسه نسخة منها ، ولسنا نعرف إن كانت النسخة التي أثبتها ابن إسحاق في سيرته ، ثم ابن هشام في إعادة صياغته للسيرة هي نسخة عبد الله بن الحسن بن الحسن أو نسخة جعفر الصادق . .

أما أهل الحديث فلم يصل إليهم النص الكامل ، إنما وصلتهم منها صور موجزة أكبرها مانجده في كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ، ونظراً لموقف أهل الحديث عامة من ابن إسحاق فإن أحداً منهم لم ينقل عنه النص كاملاً واكتفى كل منهم بما وصل إليه ، ثم إن منهجهم في الرواية كان يعتمد أساساً على السند أو سلسلة الرواة .

ونص ابن إسحاق ليس له سند ، فهو من إماء الرسول ﷺ إلى على بن أبي طالب ، حقاً إن علياً بن أبي طالب قرر أنه لم يكتب عن رسول الله إلا بعض القرآن « وما في هذه الصحيفة » كما قال . إلا أن هذا لم يكف أهل الحديث المدققين المحققين ، فظلت عندهم قطعاً وإشارات لا يتكون منها نص متصل يصلح أن يكون أساساً لدراسة شاملة أو أساساً لاستخراج أحكام . وكانت خسارتنا بذلك خسارة كبرى . .